شرف الدين النشو والسلطان الناصر محمد بن قلاوون
(تآلف ثم انتقام)

د. سماح عبد المنعم السلاوى(*)

في هذا البحث أقدم دراسة لشخصية مصرية في العصر المملوكي أثرت في حياة المصريين، ورغم أننا لا نعلم كثيراً عن مولده ونشأته، إلا أن فترة شبابه مثيرة للعجب؛ فقد ذكرت المصادر المعاصرة أنه كان نصرانياً ثم أعتنق الإسلام ولكنه دُفن في مدافن اليهود؛ بالإضافة إلى فترة عمله موظفاً في البلاط المملوكي لمدة سبع سنوات تقريبا؛ حيث كان ناظر الخاص السلطاني(١)، وكذلك سلوك عائلته وكان يتحايل بها على الحكام والتي أودت بحياته في النهاية.

وترجع أهمية هذه الدراسة إلى الفترة التي تتناولها والتي تصل إلى سبع سنوات؛ ولكنها مليئة بالأحداث؛ بالإضافة إلى أن شرف الدين النشو لم يكن أميراً أو بطلاً أو ملكاً؛ ولكنه كان شخصاً عادياً استطاع بدهائه ومكره أن يسطر سيرته في التاريخ ويسجل اسمه في صفحات الكتب التاريخية المعاصرة؛ فقد كان أحد الموظفين؛ وكان داهية في العصر المملوكي؛ تلك الشخصية التي تدعو للاستغراب والدهشة في صعودها وهبوطها، حيث تميز النشو بقدر عال من الذكاء والفطنة؛ واستخدام ذلك لمصلحته الخاصة؛ وفي تدبير المؤامرات؛ والتحالفات للوصول إلى أهدافه، واستطاع خلال فترة قصيرة أن يصل إلى مكانة مرموقة في بلاط السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وأصبح الساعد الأيمن له؛ فكان لا يصدر قراراً بدون مشورته، كما كان يستمع له في أمور كثيرة في شئون الدولة مما جعله يتعالى ويتكبر علي أكابر أمراء المماليك، ونظراً لاهتمام السلطان به فلم يكن النشو يهتم بما يقوله أو يفعله الأمراء، بالإضافة إلى أن الظروف في كثير من الأحيان كان تسانده وتقوى مركزه في الدولة حتى صار له الحل والعقد، كما أعطاه السلطان الناصر محمد بن قلاوون صلاحيات واسعة وامتيازات عديدة.

تلك الشخصية وجدت طريقة ما لتتآلف مع السلطان الناصر محمد الذي كان شغوفاً بالمال والثروة، فوجد مبتغاه في النشو الذي كان يسعى جاهداً للقيام بكل ما هو مشروع وغير

(*) تاريخ وسيط.

مشروع لكسب ود السلطان، فقام بالتحايل على القوانين، واستغل عددا من الموظفين والفقهاء لتحقيق ما يريده، كما اعتمد على إخوته وأقاربه وبعض أصحاب النفوس الضعيفة ورفقاء السوء، واستحداث أنواعاً من العقوبات للتخلص من بعض الشخصيات وتعذيبهم إما للحصول على اعتراف بجريمتهم، أو لاستخلاص الأموال منهم ظلماً وعدواناً، ولم يجرؤ أحد من الأمراء الكبار أن يتحدث عنه بسوء في مجلس السلطان، حيث كان السلطان يحترمه ويقدره ويرى أنه صديق وفي وموظف مخلص يحافظ على أمواله وممتلكاته ويحميه من خيانة وغدر بعض الأمراء وأرباب الأقلام، كما سمح له الناصر بتتبع بعض الشخصيات والعائلات الكبيرة في الدولة؛ مما دفع النشو إلى الاستمرار في تعسفه وظلمه وجبروته، فاستخدم الجواسيس وشهود الزور وملأ خزانة السلطان بالمال وأشبع شهوته.

ولكن في النهاية وقع فريسة سهلة، فأمر السلطان بالقبض عليه وعلى إخوته ومعاقبتهم جميعاً ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم؛ وذلك نتيجة لكثرة الشكاوى ضده من الأمراء والناس، فشعر السلطان أن النشو أصبح ورقة خاسرة ولم يعد قادراً على سد مطالبه واحتياجاته فتخلص منه كما كان يفعل النشو مع معاونيه ومساعديه عندما ينقلب على أحدهم، ومات النشو تحت العقوبة والتعذيب وضاع ما جمعه ولكن لم تضع سيرته وقصة بزوغ نجمه ثم أفوله، فمازالت حياته في كتب التاريخ تعبر عن المقولة الشائعة "ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع".

بداية صعود النشو:

هو عبد الوهاب بن فضل الله الكاتب شرف الدين النشو وقد خدم مع أبيه في البداية عند الأمير بكتمر الحاجب ثم تركاه وأصبحنا بطالين(٢)، وذكر أنه عاش مع أسرته في ضيق وكرب ولم يجدوا ما يقتاتون به؛ بل لم يكن لديه سوى قميص واحد يتبادله مع أخيه عند الخروج، ثم طلبه الأمير أيدغمش أمير أخور، وفي اليوم التالي طلب السلطان الناصر محمد بن قلاوون كتاب الأمراء فرأى النشو واقفاً وكان في ذلك الوقت شاباً، طويل القامة؛ حسن الوجه؛ نصراني الملة؛ فاستدعاه السلطان وسأله عن اسمه قال له: النشو فقال السلطان: أنا أجعلك نشوى؛ فجعله مستوفياً في الجيزة(٣) فتحسنت أحواله ثم نقل إلى وظيفة أعلى وهي مستوفي الدولة واستمر فيها مدة حتى استلمه الأمير بكتمر الساقي وجعله يعتنق الإسلام وأسماه عبد الوهاب(٤)، وبعد زواج الأمير آنوك بن الناصر محمد وإعلان السلطان ولاية العهد لابنه من بعده أمر السلطان بن هلال الدولة بجمع كتاب الدواوين ليختار منهم مستخدماً في ديوان الأمير آنوك وبالفعل حضر الجميع وصار السلطان

يسأل ويتعرف عليهم حتى وقع اختياره على شرف الدين النشو، فقد وقف أمامه عدة مرات من قبل وأُعجب به السلطان وبطريقة كلامه فأشار على ابن هلال الدولة أن يستخدمه بديوان الأمير آنوك وأن يكون الأمير سيف الدين ألطنقش أستاداراً له[٥]، فأصبح للنشو الحق في التردد على القلعة وحضور مجلس السلطان، ويبدو أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان مصغياً له ومنصتاً لكل ما يقوله، وهنا استغل النشو ذكاءه والظروف من حوله حتى يجذب السلطان إليه؛ فربما كان يطمع منذ البداية أن يكون قريباً من السلطان مهما كانت الطريقة، فاغتنم كل فرصة مناسبة تمكنه من الوصول إلى ذلك كما كان يكثر من الوقيعة في الدواوين حتى أثر كلامه في السلطان، ثم عينه السلطان ناظر الخاص السلطاني وخلع عليه وبدأ مباشرة عمله في يوم الاثنين ١٧ جمادى الثاني ٧٣٢هـ/ الأحد ١٥ مارس ١٣٣٢م[٦].

أعمال النشو وموقف الأمراء والمصريين:

- **تتبع الشخصيات الهامة في الدولة:**

بدأ النشو في الاستعداد لهذا المنصب الجديد الهام، فعندما استقر في النظارة بدأ في تتبع الشخصيات الهامة في الدولة، فقام بتحريض السلطان وإغرائه بالقبض على أولاد التاج إسحاق، وكان سبب ذلك هو أن الفخر محمد بن فضل الله ناظر الجيش قد أرسل رسالة إلى ابن هلال الدولة يخبره بأن شرف الدين بن موسى بن التاج إسحاق أكل مال الخاص السلطاني وأموال الدولة كما ذهب إلى السلطان وهو مريض وقال له "فأما نصيحتي فهي أن أولاد التاج إسحاق تواصوا على أكل مال الخاص والدولة والعمل على السلطان" وكان الفخر قد فعل ذلك غضباً من شرف الدين بن إسحاق لأنه علم بمحاولته وسعيه لتولى منصب ناظر الجيش فقرر الانتقام منه، ولكن مات الفخر ولم يهتم ابن هلال الدولة بأمر الرسالة فاستغل النشو الفرصة، وتغير خاطر السلطان على أولاد التاج إسحاق فعزل شرف الدين موسى بن إسحاق من نظر الجيش بعد عشرين يوماً من توليه الوظيفة، وأمر بالقبض عليه وعلى أخيه إبراهيم ومصادراتهما[٧].

لم يهدأ بال النشو حتى قضى على شرف الدين موسى بن التاج إسحاق؛ فقد أتهم والدهما المتوفي بأخذ صندوق من مكين الترجمان به جواهر وذهب قدرت قيمته بحوالي ١٠٠ ألف دينار فأنكر موسى معرفته بذلك الصندوق فصدقه ابن هلال الدولة ولم يعاقبه، ولكن النشو أستاء من ابن هلال الدولة وضغط عليه ليعذبه ليعترف بمكان الصندوق[٨]،

واستخدام الوسائل الغير مشروعة لذلك فاعتمد زور أمثال زوجة مكين الترجمان وبعض أهالي الإسكندرية فشهد الجميع على الرجل بأنه قد تسلم من مكين الترجمان قبل وفاته صندوقاً فيه ذهب وزمرد وجواهر، فطلب السلطان من ابن المحسني والى القاهرة أن يعاقب شرف الدين موسى حتى يحضر الصندوق(٩)، كما قبض على زوجة شرف الدين موسى بن التاج وكانت حاملاً حتى أنجبت ولداً تحت العقوبة وقد تعرضت للتعذيب بالمعاصر والكسارات عدة أيام ثم أفرج عنها(١٠)، وزاد في العقوبة والبطش بأولاد التاج إسحاق وضربهم ضرباً مؤلماً وأسقاهم الخل والجير وصادر من أموالهم ما يقرب من ٤٣ ألف دينار بالإضافة إلى التوابل(١١)، وقد استمر تعذيب أولاد التاج إسحاق بأشد أنواع العقاب لمدة ستة أشهر(١٢)، وهكذا كان النشو يبذل جهوداً كبيرة ومضنية لتصفية الشخصيات التي تقع تحت يديه.

وما حدث مع الشمس غبريال- ناظر الخاص والأوقاف بدمشق، فقد حاول النشو البحث في كل اتجاه ليجمع المال لإرضاء السلطان؛ ففي عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م أخبر النشو السلطان بأن الشمس قد استولى على أموال الكاتب كريم الدين- كان الشمس يتاجر له في أمواله- وأيده ابن كريم الدين؛ والدليل على ذلك الأتهام من وجهه نظر النشو هو ثراء وسخاء الشمس وكثرة متاجره وأملاكه في دمشق فاستغل الفرصة واقنع السلطان بسرقته للمال ومازال به حتى أمر السلطان بالقبض عليه ومصادرة أمواله، وعندما حضر الشمس إلى القاهرة طلب من بعض الأمراء الشفاعة له عند السلطان فوقف الأمير قوصون وبشتاك وأخبروا السلطان بأنه "ما هو إلا غلام السلطان ومعاونه وتحت إمرته وخدمته" وطلباً منه ألا يعاقبه على أن يدفع ما يحدده السلطان بنفسه(١٣)، وقد اتهمه النشو بسرقة ٤٠ ألف دينار من أموال كريم الدين ولكن بعد ضغط الأمراء تقرر عليه دفع ألف ألف درهم(١٤).

وكانت الوسيلة الوحيدة للانفراد هي التخلص ممن يعترض طريقه ولذا قدم النشو للسلطان عدة اتهامات ضد ابن هلال الدولة- والعلاقة بينهما تبدو في غاية العجب ودليلاً قوياً على شراسة النشو وسوء أخلاقياته- حيث أخبره بأن ابن هلال استولى على مال السلطان وأهمل مصالح السلطان وبسببه ضاعت أموال كثيرة وتواطأ مع أولاد التاج إسحاق على سرقة مال السلطان- وتلك فرصة جيدة للتخلص منهما معاً- وحتى تكتمل

الصورة اختار النشو أعواناً ومساعدين من أكثر الشخصيات خبثاً للتحقيق في ذلك الأمر، وهم أمين الدين بن قرموط المستوفي والشمس بن الأزرق ناظر الجهات ولؤلؤ الحلبي- ورتب معهم الخطة للإيقاع بابن هلال الدولة فأعدوا أوراقاً ضده لتأكيد تهمة السرقة عليه وأخذ الرشاوى فأثر ذلك في نفس السلطان- لأنه كان يكره الرشوة ومن يرتشى- وبعث إلى ابن هلال بأن يلزم بيته(١٥)، ثم سنحت للنشو فرصة أخرى ليستخدمها ضد ابن هلال ويثبت فساد أخلاقه؛ حيث وجد ضالته في الكاتب ابن الغول الذي كان يعمل في ديوان السلطان وقد قدم أوراقاً لأبن هلال الدولة ليحقق مع المباشرين كما طلب منه أن يقابل السلطان بنفسه ولكن ابن هلال منعه من ذلك خوفاً من حدوث فتنة واضطرابات في الدولة فأرسل النشو إلى لؤلؤ الحلبى وابن الغول وسائر كتاب الدواوين ليقفوا أمام السلطان ويفسروا له ما جاء في تلك الأوراق، وذكر ابن الغول أن تلك الأوراق قد كتبها بناء على أوامر من ابن هلال الدولة ليحصل من خلالها على بعض المال من المباشرين(١٦).

ولم يكتف النشو بعزل ابن هلال بل قرر تصفيته نهائياً فتتبع أفراد أسرته ومن يتصل به وأعوانه ومساعديه وجهز أوراقاً تثبت سرقته لأموال السلطان وتهاونه في عمله، فأمر السلطان بمصادرة أمواله وممتلكاته، كما قبض على مقدم الدولة خالد بن الرزاد وألزمهما بحمل الأموال للخزانة السلطانية(١٧)، وقام الأكز شاد الدواوين بالتحقيق مع ابن هلال الدولة وقال له "احمل المال الذي له وأنت عزيز وإلا حملته وأنت مهان" فكان جوابه السمع والطاعة ودفع حوالي ٢٠٠ ألف دينار كما بدأ يبيع أملاكه(١٨) وهكذا استطاع النشو أن يوغر صدر السلطان على ابن هلال، ويؤكد له أنه شخص غير أمين واستغل منصبه في تكوين ثروته.

وفي شهر صفر عام ٧٣٥هـ/ أكتوبر ١٣٣٤م تسلم الأكز شاد الدواوين ولؤلؤ الحلبي الولاة والمباشرين والكتاب وأولاد التاج إسحاق وابن هلال الدولة وأقاربه للتحقيق، فأخذوا من خالد المقدم مبلغ ٣٣٠ ألف درهم بعدما ضُرب بالمقارع ضرباً مبرحاً ثم أفرج عنه على أن يحمل كل يوم ١٠ آلاف درهم فحمل في شهر ١٠٠ ألف درهم، وأخذ من أعوان ابن هلال الدولة ١٥٠ ألف درهم أما هو فقد دفع ٣١٠ ألف درهم بدون عقاب(١٩)، ولكن لم يهدأ النشو بل زادت رغبته القوية في تدمير ابن هلال الدولة فقرر الخوض في جولة أخرى من الاتهامات ليؤكد للسلطان مدى فساد أخلاقه وسوء ذمته، وما

فعله في أموال الدولة وأملاك السلطان؛ وتم عقد محاكمة جديدة حيث اتهمه النشو بعدة اتهامات مختلفة عما سبق؛ حيث أدعى عليه بأنه أخذ من المخازن أربعة آلاف أردب فول ومن مخزن الأمير ألماس الحاجب حياصة، فظهرت براءته[٢٠] أما عن محاكمته والتحقيق فقد شرحها وفسرها اليوسفي[٢١].

ولم يهنأ النشو في نومه فظل يفكر في تهمة أخرى؛ وعرف السلطان أن الأمير بكتمر الحاجب كان يتحدث مع ابن هلال الدولة واتفقا معاً على أن يتخلصا من السلطان ويتسلطن نائب الكرك بأن يضرب ابن هلال الدولة بالمقارع، فسمح له بذلك فقام الأكز بضربه بالمقرعة ثم بالعصا وقال "إن ابن هلال الدولة رجل ما يحمل شدة وابن ناس وأيضاً له علي خدمة"[٢٢] وأثبتت التحقيقات مرة أخرى براءة ابن هلال وكذب النشو وافتراءه وادعاءه عليه بالفساد والسرقة وذلك على لسان الأكز مساعد النشو. وقد حاول الأمير قوصون من قبل أن يؤكد للسلطان نزاهة وعفة ابن هلال الدولة ومدى كذب النشو فرد عليه "أنا محتاج إلى ماله وإلا أنا أقتله لكونه فرط في مالي وبرطل به"[٢٣] ورفض وقتها الإفراج عنه ولكن مع إلحاح وشفاعة الأمير تنكز وأخبره أن ابن هلال الدولة سُجن لمدة عام كما أنه خدم السلطان سنين طويلة، بالإضافة إلى أنه محبوب من الناس ومازال الأمير تنكز بالسلطان حتى هدأ أمر بالإفراج عنه وعودته لمنزله أمر بألا يجتمع به أحد فاضطر ابن هلال الدولة أن يقيم في القرافة خارج المدينة[٢٤].

في ظل تلك الظروف تقدم الأمير تنكز نائب الشام بطلب إلى السلطان بأن يستقدم الأمير بدر الدين محمد بن التركماني ليكون مساعداً للنشو وليثبت ظلمه وفساده، ولكن السلطان لم يقبل به بعد وشاية من النشو الذي وجد نفسه سيكون محاطاً بعين تراقبه ولذا لن ينال أغراضه ففكر في طريقة ليتخلص منه[٢٥] فاتفق مع السلطان على القبض عليه فور وصوله ومصادرة أمواله، وقد حاول الأمير قوصون والأمير بشتك إقناع السلطان بالعدول عن فكرة القبض عليه لأنه جاء بكلمة من الأمير تنكز نائب الشام وبموافقة السلطان فكيف يفعل به هكذا؟ كما أن ذلك سيغضب الأمير تنكز كثيراً فقرر السلطان الرجوع عن قراره وهدأت الأحوال[٢٦].

كان النشو يتخذ عيوناً وجواسيس يتربصون ويتجسسون على الأعيان في الدولة، ومن هؤلاء الجواسيس النساء العجائز الذين كانوا يعملون ببيع القماش والملابس للنساء في

البيوت، فذكر له أحداهن أن نساء بيت الجيعان يذمون فيه ويشتكون من ظلمه وسطوته ومصادرته لأموال الناس بالظلم والجور بدون وجه حق ويدعون عليه، وهنا قرر النشو الانتقام منهم جميعاً وخاصة عندما علم أن أحد أولاد الجيعان يعمل كاتباً في الإسطبل السلطاني، فطلب منه أن يجهز له حساب الإسطبل فامتنع لأنه ليس من اختصاصاته، ورد ابن الجيعان على السلطان "يا خوند بدل ما تطلب حساب العبي والمقاود اطلب حساب الذهب الذي يدخل إلى خزانتك"، وأكد للسلطان أن النشو يجمع الأموال بالظلم والقهر وهذه الأموال تدخل الخزانة السلطانية ولا يعلم من أمرها شيء- وفي نفس الوقت كان ابن الجيعان الآخر يسعى ليتولى وظيفة ناظر الجيش والثالث يرغب في وظيفة ناظر الخاص السلطاني- فاشتعل النشو غيظاً وقسوة وقامت الدنيا- فقبض عليهم جميعاً وعلى أقاربهم وأعوانهم وصادر أموالهم وبعد عدة أيام توفي أولاد الجيعان تحت العقوبة[٢٧].

كما تعرض ابن المحسني والى القاهرة لتهمة السرقة من قبل النشو الذي اعتمد على شهود زور ليثبت ذلك؛ وأخبر السلطان أن ابن المحسني أخذ من أولاد الخروبي ١٠٠ ألف درهم لنفسه فأحضر صلاح الخروبي وابن المحسني ليحقق معهما ولكن ابن الخروبي لم يكن عند حسن ظن النشو بل كان رجلاً تقياً ورعاً ولم يتهم ابن المحسني زوراُ وظلماً كما طلب منه النشو، وأخبر السلطان أن ابن المحسني تسلم منه بالفعل ١٢٠ ألف درهم ولم ينكر الوالي ذلك بل سلم المبلغ لبيت المال ولديه إيصال يفيد بذلك وعندئذ أمر السلطان بعزل ابن المحسني بدون مصادرة أو عقاب[٢٨].

لكن لم يهدأ بال النشو وأصر على الانتقام من ابن المحسني وإخوته؛ فلم يجد سوى أخيه والى دمياط الذي كان حسن السيرة ولم يشتك منه أحد، فبحث النشو عن حيلة ليوقع بها الرجل وتسهل عليه مهمة القبض عليه فأخبر السلطان أنه أخذ أحجاراً وضعها الحكماء القدامى في البحر بين البرجين وعليها طلاسم تمنع اختلاط ماء البحر بماء النهر، بحجة عمارة دار السلطان وباعها وربح منها الكثير، فتحولت دمياط إلى خراب ودخل الماء المالح على الماء العذب فأتلف بذلك البساتين والحقول وتوقفت الأسواق فاستدعى الوالي إلى القاهرة؛ وعندما حضر ضربه لؤلؤ الحلبي بالمقارع واستخرج منه مالاً كثيراً[٢٩]، وقد حاول الوالي أن يخبر السلطان بالحقيقة ولكنه لم يستمع إليه وبعد فترة أرسل السلطان الأمير آقبغا ليتقصى حقيقة الأمر في دمياط ولكن النشو علم بالأمر فأرسل

شهوداً زوراً، وعندما سأل الأمير آقبغا الناس عرف منهم أن الرياح العاصفة تدفع الماء العذب إلى الماء المالح حتى مدينة فارسكور ويستمر ذلك عدة أيام ثم يعود الحال كما كان عليه وهذا الأمر معتاد منذ سنين(٣٠) وهكذا يتبين كذب النشو وبطلان التهمة الموجه إلى الوالي ورغم ذلك فإن السلطان سمح بعقابه وتعذيبه والاستيلاء على أمواله ويدل ذلك على مدى حب السلطان للمال مهما كانت الطريقة ولم يفكر يوماً أن يحاسب النشو عما يجمعه أو يسأله يوماً عن حجم الأموال والممتلكات التي يصادرها. وفي عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م أمر السلطان بالقبض على ابن هلال الدولة وعلى ناصر الدين محمد بن المحسني؛ وكان سبب ذلك هو النشو فأمر السلطان بإخراج ابن هلال الدولة إلى الإسكندرية وابن المحسني وإخوته فأخرج إلى طرابلس(٣١).

التعدي على كبار الأمراء في الدولة:

لم يقتصر دور النشو على ذلك فحسب بل كان يتعدى على أكابر الأمراء أيضاً مثل الأمير قوصون، ففي عام ٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م فكر النشو في مصادرة بعض معاصر السكر الخاصة بالأمراء عن طريق إلغاء المسامحات عليها (الإعفاء من الضرائب) رغم أن هذا الإعفاء بمرسوم سلطاني إلا أنه لم يهتم به وأحضر الكتاب إلى معاصر قوصون ووزنوا العسل؛ بحجة أن السلطان يطالبه بماله وقد أخبر السلطان أنه استطاع جمع ٦٠٠٠ دينار وسوف يحصل على مثله كل فترة فأثار بذلك شراهة السلطان الناصر محمد للمال، وبدأ ذلك واضحاً عندما أغراه النشو بكلامه حينما قال "إنك تسامح مع الدواوين وهم يسرقون بحجة المسامحة وأنا هكذا أصبحت عدواً للأمراء" ومازال بالسلطان حتى سمح له بالتصرف بالطريقة التي يرى فيها مصلحة السلطان؛ مما أثار غضب قوصون وخاصة بعد موافقة السلطان بإلغاء المسامحة على معاصره وأخبره السلطان بأن" المال يذهب للمسامحة وتأكله الدواوين ولا يحصل مصلحة لأحد فلا تفتح هذا الباب" وهنا صمت الأمير قوصون وامتنع عن مناقشة الأمر ولم يجرؤ أحد بعدها على الكلام أو الاعتراض على ما يفعله النشو، وبذلك عظم شأن النشو وصارت له كلمة مسموعة على الأمراء(٣٢).

استمر النشو في مطاردة موظفي الأمير قوصون؛ ففي عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م صادر المعاصر والدواليب وجميع أعمال الصعيد والفيوم وألزم ابن المشنقصي مدولب مطبخ (الموظف المسئول عن معاصر السكر) الأمير قوصون بـ ١٠٠ ألف درهم؛ وكانت حجته

أنه يغش في العسل والسكر فحنق قوصون عليه وسارع على الفور يشتكي إلى السلطان، ولكن النشو كان أكثر ذكاء فبادر بتدبير خطة للإيقاع به؛ فاتفق مع القاضي ابن مسكين بأن يجهز أوراقاً يثبت فيها أن والد المشنقصي مات على ملة غير الإسلام وبالتالي لا يحق لابنه أن يأخذ ميراث أبيه ويجب أن يرده إلى بيت المال فأمر السلطان بمصادرة أموال ابن المشنقصي(٣٣)، وفي عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م حرض النشو السلطان على القبض على الصفي كاتب الأمير قوصون وألزمه كل عام للديوان مبلغ ٢٠٠ ألف درهم عن متاجره وزراعاته، فأمر السلطان الأمير قوصون بالقبض عليه ومصادرة أمواله وكذلك إستاداره بقطلو الذي اتهم أيضاً بإتلاف المعاصر؛ بالإضافة إلى ما أخذه من المباشرين فقبض عليه قوصون وألزمه باسترجاع ما استولى عليه حتى باع داره وثيابه(٣٤).

وفي عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م اشتدت وطأة النشو على الناس جميعاً وساءت العلاقات بينه وبين الأمراء وسعى عند السلطان لينقلب عليهم ومنهم الأمير بشتاك؛ فقد أرسل النشو إلى ضامن دار الفاكهة يطالبه بما هو مقرر عليه من ضريبة فطلب الضامن إعفاءه من الدين لأن الأعناب الواصلة من ناحية مرصفا وغيرها قد عُصرت خمراً بناحية شبرا وبالتالي لن يقدر على دفع الضريبة، فقام النشو بالتحقيق في الأمر فوجد أن شبرا تابعة للأمير بشتاك وأن إستاداره جمال الكفاءة يعصر فيها الخمر فأمر الوالي ولؤلؤ الحلبي بكسر جرار الخمر بها والقبض على جمال فغضب الأمير بشتاك؛ وأرسل النشو إلى الأمير بكتوت للتحقيق مع جمال الإستادار حيث أتهمه أيضاً بسرقة ٥ آلاف أردب قمح و ٥٠ ألف درهم، وقد باع القمح بستين وسبعين درهماً في حين أمر السلطان بأن يباع القمح بثلاثين درهماً؛ ولكن ثبتت براءة جمال الكفاءة من تهمة الخمر والقمح وظهر كذب النشو وأمر السلطان بالإفراج عن جمال الكفاءة ولكن الأمير بشتاك أسر ما حدث في نفسه(٣٥).

كان الأمير طيبغا القاسمي من المماليك الناصرية يسكن بجوار بيت النشو وكان له مملوك يعاشره صهر النشو وأخوه وغيره، فترقبه وتتبعه حتى هجم عليهم جميعاً وأخرج مملوكه بالقوة، فبادر النشو بتدبير خطة للقبض عليه وادعى أمام السلطان أن القاسمي يشرب الخمر ويسكر ويحضر مجالس الشرب والطرب وأنه تهجم على بيته وهو سكران وتعود أن ينزل عند مملوك يهواه- وكان السلطان الناصر محمد يمقت شرب الخمر ويعاقب عليه- فأمر أن ينفى الأمير طيبغا ومملوكه إلى الشام(٣٦).

ثم التفت النشو إلى جهة الأمير آقبغا عبد الواحد فوشى به عند السلطان وأخبره أن إقطاع النحراوية وأبيار عليهما دين يقدر بـ ٨٠ ألف درهم، وذلك لأن الأمير آقبغا أخذ منها أموالاً وعمل ختماً لنفسه بدلاً من ختم السلطان؛ فأمر بإحضاره واتهمه النشو اتهامات خطيرة فخاف آقبغا ولم يجد عذراً مقبولاً فطرده السلطان فزاد حنق وغضب المماليك الخاصكية من النشو[٣٧]، وأدى ذلك إلى أن زاد النشو فخراً بنفسه بعد أن استطاع إثبات صحة اتهامه للأمير آقبغا وزاد قرباً من السلطان وثقة فيه.

كان الأمير بغا الدوادار يساند التاجر ابن الرجاني الذي ظلمه النشو ولكن الأخير أخبر السلطان أن الأمير بغا يأخذ الرشاوى من الناس والتجار ويتجاوز عن بعض الأخطاء المتعلقة بالدولة، فأفسد علاقة الأمير بغا بالسلطان حتى أمر بترحيله من مصر إلى صفد[٣٨]، أما الأمير سيف الدين طقتمر الخازن فقد غضب عليه السلطان وأخرجه إلى حلب وكان سبب ذلك وقوع خلافات بين النشو والأمير طقتمر؛ فقد طرح النشو على أحد التجار ثياباً بضعف ثمنها الأصلي كالعادة فاشتكى التاجر للأمير طقتمر ورد عليه النشو "يا خوند هذا التاجر ما يشتكى من القماش لكن عليه للسلطان مبلغ ٣٠ ألف دينار وقد تهرب من الدفع، وهذا المبلغ جزء من ميراث زوجته التي كانت جارية الملك الأشرف خليل بن قلاوون ويقدر بحوالي ١٠٠ ألف دينار؛ بالإضافة إلى الجواهر فأخذه ولم يظهر منه شيئاً" فأمر السلطان ابن صابر المقدم أن يعاقبه ويستخرج منه الأموال ويشهر به في القاهرة حتى دفع ٥٠ ألف درهم، أما الأمير طقتمر فاتهمه النشو بسرقة أموال من الخزانة، كما أنه رجل متهم في دينه بمعنى أنه لا يدين بالإسلام ويميل إلي النصرانية ويدخل الكنائس في أوقات كثيرة خفية ولذا أمر السلطان بسفره[٣٩].

انبسطت يد النشو وزاد فساده وظلمه للعباد وشعر بنشوة النصر عندما سانده السلطان الناصر محمد ومدحه كثيراً أمام الأمراء والموظفين فانطلق في اتباع سياسته؛ ففي عام ٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م رسم السلطان للأمير جمال الدين آقوش الأشرفي بنيابة طرابلس لأنه كان معارضاً لسياسة النشو ودائماً ما كان يشتكى منه للسلطان- كان هذا انتصاراً جديداً للنشو شجعه على الاستمرار في سياسته- وعندما قُبض على الأمير جمال الدين في العام التالي ونُقل إلى سجن الإسكندرية نزل النشو إلى بيته واستولى على كل ما وجده من أموال وممتلكات وحريم، كما عاقب إستاداره[٤٠].

استيلاء النشو على أموال اليتامى:

تعدى النشو أيضاً على أموال اليتامى والمواريث الحشرية[٤١]؛ فعندما توفي الأمير علم الدين سنجر الخازن لم يكن له وريث فقام النشو بحصر ثروته وما وجد في خزانته وكان حوالي ١٤ ألف أردب غلة وأموال وذهب بحوالي ٤٠٠٠ دينار، واتفق النشو مع صدر الدين الطيبي ناظر ديوان الأمير علم الدين سنجر على الاستيلاء على غلاله وماله فأخذا منه ما أرادا وسجلاً الباقي في ديوان المواريث[٤٢]، وعندما توفي ناظر الشام الصاحب شمس الدين غبريال وجد عنده أموال كثيرة؛ وكان قبل وفاته يدعى الفقر وقلة المال فوجد لديه ودائع كثيرة من التجار والأكابر فانتهز النشو الفرصة وخاصة عندما حضر ابن شمس الدين من الشام ليطلب من أخته حقه في ميراث أبيه ولكنها رفضت، فاتجه إلى النشو الذي استطاع استخراج الأموال منها فكانت عبارة عن أموال ذهبية وتحف وكيس جواهر ووجد أيضاً ورقة مكتوب فيها ودائع بأسماء أصحابها فأرسل إليهم ليطلب منهم الأموال ومن لم يحضرها نُهبت أمواله وشنق- وهكذا أثبت النشو للسلطان مدى حرصه على أمواله وصدقه في الاتهامات التي وجهها للأمراء الذين كانوا يقفون ويساندون شمس الدين غبريال- وهنا مدحه السلطان أمام الامراء قائلاً "لما كنتم تقولون إن غبريال فقير وشحات وأنتم تكذبوا النشو في جميع ما يقوله وقصدكم أن لا تدعو أحد يخدمني وينصحني" فلم يجرؤ أحد من الأمراء أن يجاوبه[٤٣].

ذات يوم طلب السلطان من النشو ١٠ آلاف دينار من الخزانة فاعتذر النشو لعدم وجود أموال فنهره السلطان ووبخه، فاضطر إلى البحث والتنقيب عن الأموال لسد حاجة السلطان فلم يجد أمامه سوى أموال لأيتام، حيث وجد ٤٠٠ ألف درهم لأيتام تحت وصاية القاضي بهاء الدين شاهد الجمالي الذي رفض إعطاءه المال ولكنه خشي ظلمه فطلب منه أن يعوضه مقابل المال فأعطاه النشو أخشاباً تعادل ثلث قيمة مال الأيتام، ثم تعدى على ميراث أولاد النائب أرغون وكان الوصي عليهم القاضي تقي الدين الأخنائي المالكي الذي رفض أيضاً إعطاءه المال فلا يحق للسلطان أخذ مال اليتامى، فأجابه النشو بأن السلطان يطلب المال الذي سرقه أخوه من خزانة الخاص عندما كان ناظراً عليها- وكان النشو قد أعد أوراقاً مزورة وشهود زور تثبت ذلك- وعندما علم السلطان بذلك أرسل إليه رسالة قاسية اللهجة، فاضطر المالكي إلى دفع ٦٠٠٠ دينار سلمها للنشو[٤٤].

وفي عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م شكي المماليك السلطانية من تأخر كسوتهم فطلب السلطان النشو وألزمه بحمل الكسوة غداً ومعها ٢٠ ألف دينار فألزم الطيبي ناظر المواريث بتحصيل ٥٠٠٠ دينار[٤٥]، وعندما اعترض قاضي الإسكندرية عماد الدين شيخ خانكاه بهاء الدين أرسلان على ما يفعله النشو في أموال الأيتام التي اشترى بها جواري فعاقبه النشو على ذلك واتهمه بسرقة مال الأيتام ولكن بعد التحقيق معه ثبتت براءته وأفرج عنه، وفي نفس الوقت اشتد الظلم على الناس وكثر كلامهم عن عدم استلام الأيتام لأموالهم حتى أصدر السلطان مرسوماً إلى الطيبي ناظر المواريث بألا يسجل محضراً باستحقاق الميراث حتى يوافق عليه السلطان، ولكن الطيبي كان يستولى على أموال التركات ويعطيه للنشو دون علم الورثة، فأنكر النشو ذلك ودافع عن نفسه بأعذار قبلها السلطان، ثم أمر القضاة ألا يسجلوا الميراث إلا بمرسوم[٤٦]، ولم يلبث النشو أن استولى على تركة محتسب القاهرة وبعث المقدمين إلى الأسواق ففتحوا حوانيت التجار وأخذوا كسوة المماليك وحوائصهم وأخفافهم وارتجت المدينة بأهلها وانقلبت رأساً على عقب وترك التجار الحوانيت مفتوحة فقام المماليك بنهبها وكسروا أقفال الحوانيت المغلقة ونهبت الأسواق "ولم يبق إلا باك أو شاك أو صائح أو نائح وعاش أهل القاهرة يومين قاسيين"، وأصدر النشو مرسوماً بأن "من أغلق حانوته أخذ ماله وشنق"، فاضطر الناس إلي فتحها واستقرت الأحوال وصبر الناس على الأذى؛ ثم صادر النشو تركة أولا نجم الدين محمد الإسعردى ناظر الأوقاف كما أخذ وديعة من تركته كانت لأولاد أيتام تحت وصايته ومقدارها ٥٠ ألف درهم وأنفق ذلك كله على المماليك والخدم[٤٧].

- **ظلم وتعدى النشو على التجار والباعة**:

لم يترك النشو مجالاً إلا اقتحمه مادامت النتيجة كانت هي المال الوفير، فمنذ توليه منصب ناظر الخاص السلطاني كثرت المصادرات وخاصة مصادرة التجار ونهب الأسواق؛ فبدأ ذلك عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م بطلب تجار القاهرة ومصر وطرح عليهم عدة أصناف من الخشب والجوخ والقماش بثلاثة أضعاف ثمنها الأصلي؛ ثم استدعى الشمس بن الأزرق ناظر الجهات من الإسكندرية واستعان به في كتابة أسماء التجار أصحاب الأموال وطرح عليهم أقمشة بثلاثة أضعاف قيمتها في الإسكندرية أيضاً[٤٨] حيث باع لهم الثوب بـ ٨٠ درهماً في حين أنه لا يساوى سوى ٦٠ درهماً فقط ومن اعترض على ذلك تعرض للإهانة "أما السلطان فصار ما يعرف كل يوم إلا الذهب يحمل له ولا يعلم كيف جمعه ومن أين

أحضره"(٤٩) لم يسلم من بطش النشو أرباب الدواليب بالوجه القبلي وكذلك محتسب البهنسا وأخيه؛ فأخذ منهما ٢٠٠ ألف درهم و ٢٠٠٠ أردب غلة، كما عاقب وصادر ابن زعازع أمير في الصعيد بحجة أنه قتل رجلاً من قبل؛ فقام متولى البهنسا بلف أصابعه بقطعة قماش وغمسها في القطران وأشعل فيها النيران ثم عراه من ملابسه وعذبه بالنار حتى أخذ منه" ألف ألف و ٥٠٠ ألف درهم و ٤٠٠ فرجية فرو(٥٠) و ١٢٠ جارية و ٦٠ عبداً وكتب عليه حجة بدفع ١٠٠ ألف درهم فيما بعد(٥١)، كما طلب النشو أولاد قمر الدولة بالصعيد وغيرهم من الأمراء وصادرهم جميعاً وبلغ أذاه سائر الخلق في المدينة وفي البر والبحر فخاف الناس على أموالهم(٥٢). وما لبث أن قام في عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م بإرسال من يقوم بالكشف عن أرباب دواليب القند، فوجد لأولاد فضيل كثير من القند فقد كانوا يصنعون كل عام ١٤ ألف قنطار من السكر والعسل بالإضافة إلى الجواري والعبيد والغلال والذهب والفضة فحمل ذلك كله إلى الحواصل السلطانية وأقام على بن فضيل في التعذيب مدة ثم أفرج عنه وخلع عليه وأعيد إلى حاله بمدينة ملوى(٥٣).

عندئذ تمكن النشو من امتلاك حب السلطان له وظهر ذلك واضحاً عندما كان السلطان يدافع عنه أمام الأمراء المعارضين والكارهين له ولا يستمع لشكواهم، كما أذن له بالتصرف في أمور الدولة بحرية كيفما يشاء ولا يبالى أحداً؛ فأخذ النشو يدبر المؤامرات للتخلص من ابن هلال لأنه كان يعارضه في شئون الدولة ويمنعه من ظلم الناس ويتعاطف مع من يصادره النشو، وقد حدث ذات يوم أن طرح النشو على السكريين والعطارين وتجار قيسارية الأمير جهاركس وتجار سوف الشرابشيين بضائع باهظة الثمن فغلقوا الدكاكين واشتكوا لابن هلال الذي وقف للنشو وأخبره أن هؤلاء التجار معفون من الضرائب بمرسوم سلطاني- ولكن النشو أراد أن يؤكد للسلطان حرصه على أمواله- فذكره للسلطان أن هؤلاء التجار مشتركون مع ابن هلال الدولة في شراء الخلع وبيعها للسلطان بفائدة بلغت نصف ثمنها وبذلك فإنهم يدينون للسلطان بحوالي ١٥٠ ألف درهم كما أن نائب الشام يعاونهم في ذلك(٥٤).

تدخل النشو في العملة وابتكر مظلمة جديدة لم يسبقه أحد من قبل؛ حيث ألزم أهل الصاغة ودار الضرب ألا يبتاع أحد منهم ذهباً بل يُحمل الذهب جميعه إلى دار الضرب ليصك بصكة السلطان ويضرب دنانير هرجة(٥٥) ثم تصرف بالدرهم، فجمع من

ذلك المال الكثير للديوان ثم تتبع النشو الذهب المضروب في دار الضرب؛ فأخذ ما كان مع التجار والعامة وعوضهم عنه بضائع وحمل ذلك كله للسلطان، وبذلك انحصر ذهب مصر في دار الضرب ولم يجسر أحد على بيع شيء منه في الصاغة أو غيرها، وفي عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م عاد مرة أخرى وطرح مبلغ ٢٠٠ ألف درهم فلوساً نحاساً على التجار وأرباب المعاملات فتوقفت الأحوال وذلك لأن الفلوس كانت تؤخذ بالعدد وقد كثر الغش فيها وإضافة الرصاص ثم نودى أن ترد الفلوس ولا يتعامل بها فتحسنت الأحوال(٥٦).

في عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م أجدبت زراعة الفول فألزم النشو سماسرة الفول ألا يباع الفول إلا للسلطان فتضرر بذلك أرباب الدواليب(٥٧) لأنهم يعتمدون على الفول في إطعام الأبقار التي تدير الآلات، وفي نفس العام ارتفع سعر اللحم بسبب قلة الأغنام المجلوبة لأن النشو أخذ الغنم بنصف قيمتها ثم طرح الأبقار الضعيفة على التجار والباعة في الطريق ومصر ولم يبق حانوت إلا اشترى منها وطُرحت أيضاً على الطواحين والحمامات كل رأس بـ ١٠٠ درهم وهي في الحقيقة لا تساوى أكثر من ٢٠ درهماً، فحصل للناس مشقة وضرر بالغ واشترى النشو للسواقي في القلعة أبقاراً جديدة(٥٨)، وعندما قل وجود فرو السنجاب لم يجد النشو حلاً إلا أن استولى على كل الفرجيات من حوانيت التجار ومن البيوت فدعي عليه التجار واشتكوا منه، فلما بلغه ذلك اتهم البعض منهم بالربا والرشوة واستأذن السلطان في بيع الخشب والحديد على التجار بلغت قيمتها الأصلية من ١٠٠٠ إلى ٣ آلاف دينار فبلغت جملة المال الذي حصل عليه حوالي ٥٠ ألف دينار ومن رفض الشراء تعرض للعقاب، ويبدوا أن أحد التجار كان على معرفة بالست حدقة وأم آنوك زوجة السلطان فاشتكى إليهما وقال "إن الخشب الذي فرضه على قيمته الحقيقة ألفا درهم ولكن النشو طلب منه ألف دينار ثمناً له" فأنكر النشو ذلك وانصرف من عند السلطان وهو يشتاط غيظاً ودبر حيلة ليخرج من هذا المأزق فأرسل رجلاً إلى التاجر ليشترى منه الخشب بثمن أكبر مما اشترى به التاجر وكتب عقداً بذلك وبالتالي فسيحصل التاجر على ١٠٠ ألف درهم فائدة وتركه الرجل ليحضر المبلغ في حين أخذ النشو العقد وقدمه للسلطان ليؤكد كذب التاجر وافتراءه على النشو فأمر السلطان بعقاب التاجر ودفع ألف دينار فعظم شأن النشو أكثر من ذي قبل وقال السلطان عنه "مسكين النشو؛ ما وجدت أحداً يحبه كونه ينصحني ويحصل مالي"(٥٩).

استمرت سياسة طرح البضائع على التجار فأخرج ذات يوم من الأهراء السلطانية ١٠ آلاف أردب قمحاً وطرحها على أصحاب الطواحين والأبارزة[٦٠]، واستكمل عمله بطرح فدان القلقاس على القلاقسية بـ ١٢٠٠ درهماً وصادر السماسرة، وأخذ عدة مخازن للتجار وأخرج ما فيها من البضائع وطرحها بثلاثة أضعاف قيمتها[٦١].

في عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٨ طرح النشو ألف مقطع قماش بحساب ٣٠٠ درهم للمقطع في حين كانت قيمته الأصلية ما بين ١٥٠- ١٦٠ درهماً، ثم طرح ثياب مماليك الحلقة وأخفافهم على أربابها بأغلى الأثمان، وعندما قدم عدة تجار من الشام بثياب بعلبكي كثير ختم النشو عليها وأخذ منها ما جرت به العادة للديوان من المكس ثم اشتراها بالثمن الذي حدده ثم طرحها على تجار القاهرة بثلاثة أمثال قيمتها وألزم مباشري الختم ألا يختموا قماشاً حتى يستأذنوه[٦٢].

في نفس العام كسدت أحوال الغلال فقد طرح رزق الله أخو النشو (كاتب الأمير ملكتمر الحجازي) وولى الدولة صهر النشو (كاتب الأمير المجدي) القمح بزيادة درهمين للإردب، وأخذا ثمنه ظلماً وتعسفاً كما اتهم النشو المحتسب بأنه سبب ذلك الاضطراب وأخبر السلطان أن سعر الدقيق والخبز أعلى من سعر القمح فرسم لوالى القاهرة أن يطلب المحتسب والطحانين وقارن بين الأسعار فلم يجد تفاوتاً بين القمح والخبز ورغم ذلك طرح النشو على الطحانين وعرفاء الحمالة ما زرع بناحية قليوب من الفول الأخضر والبرسيم بحساب ٣٠٠ درهم للفدان الفول وأما البرسيم بـ ٢٠٠درهم وضرب جماعة منهم بالمقارع لأجل شكواهم للسلطان[٦٣].

أعوان النشو:

منذ بداية تولي النشو وظيفة ناظر الخاص السلطاني عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م اعتمد على بعض الشخصيات من نوعيته؛ لديهم نفس الفكر والرغبة الجامحة في جمع المال وتعذيب الناس وكانوا ملتزمين بالطاعة له وتنفيذ أوامره بدون معارضة، فاقنع السلطان بالموافقة على تعيين "لؤلؤ الحلبي الفندشي" شاد الجهات ثم شاد دواوين القاهرة واتبع هذا الرجل سياسة العنف والبطش والظلم والتعسف حتى صار الناس في حالة من الضيق والخوف والرعب وانشغلوا بما يحدث للمصادرين كل

يوم[١] ؛ومن هؤلاء أيضاً أخوه المخلص الذي استخدمه في كشف الدواليب ومصادرة الأموال من الولاة في الوجه القبلي[٦٥].

كان المخلص أخو النشو يتميز بالدهاء والمكر والخديعة والتفنن في أنواع الظلم والتسلط والقسوة، فعندما عاد من الوجه القبلي أغرى النشو بأن يحصل من السلطان على قرار بمصادرة مباشري الوجه القبلي؛ لأنهم سرقوا أموال الدواوين– ولكن هذا الأمر كذب وليس له أساس من الصحة– فأعطاه السلطان الإشارة بفعل ما يراه مناسباً لمصلحته؛ فكتب إلى كاشف الوجه القبلي بمصادرة المباشرين والمشددين والعمال والشهود والمتحدثين جميعهم ولم يسلم منه أحد[٦٦]، وكذلك لؤلؤ الفندشي الحلبي والأكز شاد الدواوين في الشام واقتنع السلطان بأنهما أفضل المساعدين وأمر بإحضارهما إلى القاهرة ومعهما سائر المباشرين بحلب للتحقيق معهم في أموال الخزانة السلطانية في الشام واقسم المباشرون أمام السلطان أنهم أمناء على أمواله؛ ولم يتعرضوا للخزانة السلطانية، ولكن لؤلؤاً حقق معهم وأهانهم وطلب من السلطان أن يسلمهم له وسوف يستخرج منهم ٢٠٠ ألف دينار فأمر السلطان بذلك[٦٧].

سارع بعض موظفي الدولة من التقرب بعد تأكدهم من قربه من السلطان ومدى قدرته على إيذاء؛ ففتحوا له أبواب كثيرة تتعلق بالدواوين ومباشري السلطان والأمراء وصاروا يخدمونه وينفذون أوامره ويدلونه على كل من لديه مال وأراض وأغنام، وكذلك كل من لديه جوار مولدات نظراً لأن السلطان الناصر محمد كان شغوفاً بهن، وبذلوا جهوداً مضنية ولكسب ثقته ومودته[٦٨].

ثم قام النشو بتعيين أحد الأشرار سيء السمعة عام ٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م وهو أيدكين الأزكشي البريدي في ولاية القاهرة– فخاف الناس من النشو أكثر من ذي قبل. ولذا اهتم به النشو كثيراً لأنه "مكنه من عمل أغراضه فنال به مقاصد كثيرة"[٦٩] وعندما شنع أمر أيدكين شكاه الأمير قوصون إلى السلطان فتغير السلطان على قوصون وقال له "أنت كلما وليت أحداً ينفعني أردتم إخراجه ولو أنه من جهتكم لشكرتم فيه كل وقت"، ثم أضاف له أيضاً ولاية مصر وبذلك جمع في يده ولايتين ولم يحدث ذلك من قبل[٧٠]، ومن ظلم أيدكين ما فعله مع أحد تجار قيسارية جهاركس بالقاهرة وكان لهذا التاجر ٩٠ ألف درهم دين على الخزانة السلطانية وطالب النشو بذلك الدين وألح في طلبه عدة مرات؛ فأراد النشو أن يتخلص منه أو يتبرأ من الدين فاستغل النشو أن هذا التاجر كان يحب اللهو والسكر فأمر أيدكين بمراقبته والقبض عليه وهو في حاله سكر ويحضر معه

---

(١)

شهوداً على ذلك وتم تنفيذ الخطة وقبض علي التاجر سكران واضطر إلى فداء نفسه بأن يكتب تنازلاً عن الدين للخزانة السلطانية وعرف النشو السلطان فأعجبه ما حدث وشكر أيدكين مما جعله يطلق يده على الناس[٧١]، وفي شهر ذي الحجة من نفس العام ركب أيدكين إلى النجيلة خارج مدينة القاهرة- كانت متنزها للعامة- وهجم على من فيها وما ترك أحداً إلا سلبه وأخذ ملابسه فجمع من ذلك شيئاً ثم جمع الباعة في اليوم التالي وباع لهم الثياب بـ ١٥ ألف درهم[٧٢].

نكبة النشو (أسبابها وطريقتها):

وقعت عدة أمور وأحداث نبأت بسقوط النشو منذ البداية بسبب كثرة فساده وظلمه وتسلط أقاربه على الناس، ففي عام ٧٣٥هـ/ ١٧٣٥م قدم الأمير قوصون قصة عن ولي الدولة صهر النشو؛ بأنه يعشق مملوكاً تركياً وفعل ذلك أيضاً مع عُمير مملوك الأمير ألماس وأنفق في ذلك أموالاً كثيرة فلم يقبل السلطان بتلك القصة واستدعى النشو الذي أنكرها وبكي كثيراً لسماعه ذلك وادعى أنها ملفقة وقد أشاعها أحد مماليك الأمير قوصون للإيقاع به ظلماً وزوراً وبهتاناً، واقنع السلطان بأن الأمير قوصون فعل ذلك ليعبده عن السلطان، ولكن قوصون أقسم بصدق القصة فاستدعى الشاب عُمير وحقق معه الأمير مسعود بن الخطير الحاجب، فأعترف بأنه يعرف أعيان كثيرين فخشي الأمير مسعود من الفضيحة وأخبر السلطان بكذبه لأنه ما ترك أحداً في المدينة إلا واعترف عليه فأمر السلطان بإخراج عُمير وأبيه إلى غزة[٧٣] وكان هذا أول انحطاط قدر النشو عند السلطان.

وفي عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م أوقع طائر حمام ورقة في الميدان بالقلعة تضمنت وقيعة في النشو وأقاربه مرة أخرى؛ وجاء فيها كلمات ذم فيه واتهامه بأنه خرب الدولة وعندما قرأها السلطان غضب غضباً شديداً وواجه النشو بما فيها ووبخه لكثرة من يشتكى منه، وحاول النشو الخروج من هذا المأزق فأدعى أن العلم بن أبي شاكر بن سعيد الدولة ناظر البيوت في بيت الصفي وكاتب الأمير قوصون قد كتبها، فأمر السلطان بالقبض عليه وتعذيبه بدون تحقيق في الواقعة، وتتبع النشو عدداً من الكتاب والباعة وقبض عليهم وخرب دورهم وحرثها بالمحراث، وهكذا خرج النشو من الوقيعة الثانية بمساندة السلطان والوقوف بجانبه[٧٤]، وزاد بطشه مما أثار غضب الناس قاطبة وصار النشو يدافع عن نفسه بكل ما يمكن والأقدار تساعده.

ثم جاءت محاولة لقتل النشو عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م عندما كان راكباً على عادته في وقت السحر فاعترض طريقه فارس وهو عبد المؤمن بن عبد الوهاب السلامي والى قوص وضربه على

رأسه فسقطت عمامته وجُرح كتفه ووقع على الأرض، وهرب الفارس وحزن السلطان لما حدث وبعث الأطباء لعلاجه وألزم والى القاهرة بإحضار ذلك الفارس لمعاقبته[٧٥]، كما جعل المقدم ابن صابر ومعه عشرة رجال يحرسونه في ذهابه وإيابه[٧٦] وفي عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م كثر دعاء الناس على النشو حتى الوعاظ ورجال الدين في الجامع الأزهر الشريف وجامع الحاكم، وقام النشو بتحريض السلطان ضدهم فأمر بمنع الوعاظ جميعهم من الوعظ[٧٧]، وفي عام ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م عرف السلطان أن الحجاج يشتكون من النشو في المدينة ومكة وعرفات بسبب ظلمه فقد زاد في المظالم وعندما أراد الرجبية (حجاج شهر رجب) أن يحجوا في السنة الماضية دون دفع ما عليهم من ديون فأمر السلطان بتأخيرهم للعام الحالي فلما حج الناس في الموسم دعوا علي النشو لأنه كان السبب في تأخيرهم[٧٨].

ومازال النشو على ظلمه وتعسفه مع الرعية، وعندما كثرت احتياجات السلطان ومع عجز النشو عن تلبيتها فاضطر للاستيلاء على أملاك وأموال الخاصة والأحباس والجوامع والأراضي الزراعية وطلب من أصحابها دفع خراجها ثلاث سنوات مقدماً، وكذلك أراضي الروضة، وفي نفس الوقت اشتكى التجار وأرباب الأموال،كما اجتمع أرباب الرواتب والصدقات وفيهم الأمراء والأيتام وصاروا يبكون بشدة عند باب القلعة فأمر السلطان أن ينصرفوا ويحضروا في أول الشهر فذهب الناس إلى الجوامع وأجهروا بالدعاء علي النشو طيلة الليل[٧٩].

انزعج الجميع مما فعله ولكن لم يتجاسر أحد من الأمراء على الحديث مع السلطان حتى اتفق بعض الخاصكية واختاروا الأمير يلبغا اليحياوي والأمير ملكتمر الحجازي ليقابلا السلطان ويوضحا له حقيقة النشو وأفعاله وظلمه للعامة والخاصة؛ فقال له يلبغا "يا خوند والله النشو يضرك أكثر مما ينفعك" ثم وجد السلطان عدة أوراق في حق النشو رميت له ولا يعرف أحد مصدرها ومنها ورقة جاء فيها:

أيا ملكاً أصبح في نشوة ... من نشوة الظالم في نشبه
أنشيته فلتنشئن ضغائنا ... سترى غباوتها بصحبة غيه
حكمته فحكمت أمراً فاسداً ... وتوحشت كل القلوب لفحشه
سترى بوارقها إذا ما أظلمت ... وتحكمت أيدى الزمان ببطشه
ولتندمن ندامة كسعيه ... يوماً إذا ذبح الخروف بكبشه[٨٠]

فلما قرأها السلطان تغير وجهه ومزقها ثم وجد ورقة أخرى جاء فيها:

أمعنت في الظلم وأكثرته   وزدت يا نشو على العالم
ترى من الظالم فيكم لنا   فلعنة الله على الظالم(٨١)

في ظل تلك الظروف المتتالية قرر السلطان أخيراً في يوم الاثنين ٢ صفر ٧٤٠هـ/ الأحد ٨ أغسطس ١٣٣٩م القبض على النشو وأخوته ويقبضا عليه وعلى أقاربه في نفس اللحظة(٨٢)، وعندما قُبض على النشو وذاع الخبر في القاهرة وأنشد البعض فرحاً:

النشو لا عدل ولا معرفة   فقد أن للأقدار أن تعرفه
من أتلف للناس أموالهم   يحق للسلطان أن يتلفه(٨٣)

كانت فرحة الناس لا توصف فاجتمعوا بالرميلة تحت القلعة وغُلقت أسواق القاهرة ومصر وسار الجميع من نساء وأطفال في الشوارع وأشعلوا الشموع ورفعوا على رؤوسهم المصاحب وعلقوا الأعلام وقال الكمالي جعفر شعراً في القبض عليه:

إن يوم الاثنين يوم سعيد   فيه لا شك للبريه عيد
أخذ الله فيه فرعون جهراً   وغدا النيل في رباه يزيد(٨٤)

وقال شمس الدين محمد بن الصائغ المصري:

لقد ظهرت في يوم الاثنين آية   أزالت بنعماها عن العالم البوسا
تزايد بحر النيل فيه وأغرقت   به آل فرعون وفيه نجا موسى(٨٥)

بدأ التحقيق مع النشو في الاتهامات الموجه إليه من سرقة ونصب وتزوير وافتراء على الناس(٨٦).

وبعد انتهاء التحقيق معه تأكد السلطان من فساده حيث وجد له ثروة عظيمة تشتمل على ٦٠ جارية و ٢٠٠ إناء عسل وعنب وكذلك ١٥ ألف دينار ٥٠٠ حبة لؤلؤ قيمة كل حبة يتراوح ما بين ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ درهم و ٧٠ فص بلخش(٨٧) قيمة كل فص ما بين ٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ درهم وقطعتا زمرد فاخر زنتهما رطل ونيف، كما عُثر على حبل من اللؤلؤ كبير الحجم ووزن كل حبة ٤٠٠ مثقال، وأيضاً ١٧٠ خاتماً من ذهب وفضة بفصوص مثمنة وصليب ذهب مرصع وعدة قطع زركش سوى الحواصل وأكياس لم تفتح، واستمر الأمراء ينزلون كل يوم لإخراج حواصل النشو فوجدوا أواني من الصيني والبلور والتحف السنية بالإضافة إلى مماليك وأقمشة وملابس(٨٨).

ثم أحضروا ولى الدولة صهر النشو للتحقيق معه فدل على ذخائر وثروات أخرى للنشو ما بين ذهب وأواني في صندوق كبير وأموال وبيع بيت النشو بـ ٢٠٠ ألف درهم، أما المخلص أخو النشو فقد ضرب بالمقارع مع عبده المفلح وأعلنا إسلامها ثم عوقب مرة أخرى حتى توفى ودفن في مقابر اليهود وماتت أمه بعده مباشرة، أما رزق الله الأخ الثاني انتحر عند الأمير قوصون وأخرج في تابوت امرأة ودفن في مقابر النصارى خوفاً من العامة[٨٩]، وكان رزق يقول لأخيه "إن جرى علينا نائبه لا يرحمنا أحد لمبالغتنا في نصح الملك ويشمت الناس فينا وأنا إن وقع لي عقوبة لا أمكن احد من عقوبتي" فقتل نفسه بيده[٩٠]، ثم ركب الأمير أقبغا إلى دور آل النشو بالمصاصة ومعه الأسرى وهدمها كلها حتى سوى بها الأرض وحرثها بالمحراث وحمل أنقاضها ورخامها[٩١] وانتهت حياة النشو بالتعذيب والعقاب حتى هلك في يوم الأربعاء ٢ ربيع الأخر ٧٤٠هـ/ الأربعاء ٦ أكتوبر ١٣٣٩م وكتب محضر وفاته ودُفن في مقابر اليهود بكفن قيمته ٤ دراهم ووكل بقبره من يحرسه لمدة أسبوع خوفاً من العامة أن تقوم بإخراجه وحرقه[٩٢] وهكذا كانت مدة ولاية النشو للوظيفة سبع سنوات وسبعة أشهر.

لقد تعرض الناصر محمد لظروف قاسية منذ صغره حتى تولى السلطة للمرة الثالثة عام ٧٠٩هـ/ ١٣١٠م جعلته يفكر في حماية نفسه فبدأ بعمل الروك الناصري عام ٧١٥هـ/ ١٣١٥م قام بمسح شامل للأراضي الزراعية وأعاد توزيعها بشكل يخدم أهدافه وطموحاته؛ فقد قسم الأرض إلى ٢٤ قيراطاً، منها ١٠ قراريط للسلطان، و١٤ قيراط للجند والأمراء والحاشية[٩٣] وفي سبيل إضعاف سلطتهم ونفوذهم صارت إقطاعتهم موزعة أنحاء البلاد مما سبب لهم المشقة في جمع إيرادات الإقطاع وتفتت سلطتهم[٩٤] وبالتالي زاد نصيب السلطان من الأراضي الزراعية والأرباح المادية حيث خصص لنفسه أكثر الأراضي خصوبة وإنتاجاً[٩٥]وتقلصت القوة المالية للأمراء والجند وتضاعفت قوة السلطان ومركزه. ومن ناحية أخرى كانت ظاهرة المصادرات واضحة في عصره وتتم بأمر السلطان سواء في حالة وجود أدلة وبراهين أم بدون ذلك لأغراض عديدة؛ إما رغبة في التخلص من أمراء كانوا سبباً في شقاءه أو لعدم إحساسه بالأمان معهم وفي نفس الوقت يمنع ظهور منافسين له أو بسبب خيانتهم وغدرهم أو بسبب خروجهم عن طاعة السلطان فقرر تصفيتهم وعقابهم وتقليص نفوذهم ليكونوا دائماً تحت سيطرته ورغم أن هناك بعض المصادرات لم يكن لها سبباً واضحاً ولم تذكر المصادر المعاصرة سوء أخلاقيات المصادر أو سرقته للمال بل كان بعضهم يتصف بالنزاهة والعفة وخدم السلطان الناصر سنوات عديدة ولكنه تأثر بالدسائس والمؤامرات

فجاءت المصادرة اعتباطاً بدليل أنه بعد عدة أشهر يتم الإفراج عن المصادر[٩٦] ولعل السبب الهام للمصادرة كان الحاجة للمال سواء للحرب أو للترفية أو للبناء والعمارة؛ فقد أكدت المصادر التاريخية أن الناصر محمد كان محباً بل شرهاً لجمع الأموال والجواهر والأحجار وكان يعلم مواطن ومصادر جمع تلك الأموال وفي نفس الوقت يحب من يساعده في ذلك ولا يسأل عن كيفية جمع تلك الأموال بل كان الأهم لديه أن تمتلئ خزانته بالمال، وشغف بالجواري السراري والمماليك والخيول وبذل فيهم المال الكثير، كما جهز بناته بأفخر وأغلى جهاز، وقدم الهدايا النفيسة للأمراء العرب وملوك الدول، وكان محباً العمارة؛ فأنشأ القصور والبساتين والقلاع والدور لنفسه ولإمرائه المقربين وأقام احتفالات عظيمة وصرف عليها الأموال الطائلة ومن خلال ما جاء في المصادر تبين أن الناصر كان في حاجة ماسة للمال الوفير لتغطية نفقاته المتزايدة[٩٧] فكانت للمصادرات فوائد منها التخلص من منافسية وأعدائه والحصول على الأموال.

بعد كل ما قدمه النشو للسلطان تخلص منه نهائياً؟ وللإجابة على هذا السؤال من الطبيعي أن نوضح بعض الصفات المتناقضة في شخصية الناصر العجيبة؛ حيث كان أكثر السلاطين حشمة وتديناً ومحافظاً على الشريعة، ولم يذكر في المصادر المعاصرة أنه أطلق لسانه بكلام سيء سواء في شده غضبه أو في فرحه وسعادته وكان يدعوا الأمراء وأرباب الوظائف بأحسن أسمائهم، كما كان يكره شرب الخمر ويعاقب عليه وفي عهده أمر بإراقة كميات كثيرة من الخمور وأغلق معاصر الخمر في أنحاء مصر؛ وكان مستبداً بأمور مملكته وانفرد بالحكم واتخاذ القرارات حتى أنه أبطل نيابة السلطنة في عهده ولم يعد هناك نائباً يحل مكانه في حال غيابه عن البلاد، كما كان لا يعتمد على مشورة أحد من الأمراء حتى الأمراء المقربين إليه، وكانت له حركته ومهابته التي تجاوزت الحدود حتى أن الأمراء كانوا إذا وقفوا في الخدمة لا يجرؤ أحد منهم أن يتحدث مع رفيقه ولا يلتفت نحوه خوفاً من مراقبة السلطان لهم[٩٨]، ومن صفاته أيضاً؛ المكر والدهاء؛ فكان إذا تغير على أحد من أمرائه وكتابه أسر ذلك في نفسه مدة طويلة وهو ينتظر له ذنباً يأخذه به، وأتصف كذلك بعدم ثقته بالآخرين فكان يقبض على كل من يشك في إخلاصه للسلطان ولم يسمح لأحد من الأمراء أن يصل إلى مكانة مرموقة دون أن يستفيد منه وعندما تنقضي حاجته منه ويفرغ عنه يلجأ إلى مصادرة أمواله وممتلكاته واعتقاله وربما قتله[٩٩] وذلك ما حدث مع النشو حيث ترك له العنان وأطلق يده في البلاد يفعل ما يشاء طالما يملأ خزانته بالمال الوفير وعندما انتهت مهمته تخلص منه نهائياً، فلا عجب في ذلك فقد تعرض الناصر للغدر والخلع والنفي واغتصاب السلطة منه مما جعله حذراً مع

الآخرين، وفي بداية حكمه نصحه أحد الأمراء المقربين لوالده وهو الأمير أسندمر الكرجى نائب حلب فقال "أوصيك يا خوند ألا تترك في دولتك كبش كبير وأنشئ مماليكك" وكان هو أول من غدر به الناصر لأنه طمع في نيابة حلب وحماه معاً(١٠٠) ومنذ ذلك الوقت أصبح مبدأ الغدر والقتل أساس حكم الناصر حتى أنه في عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م تخلص من الأمير سيف الدين بكتمر الساقي الذي رباه لمجرد أنه سمع برغبته في التآمر ضده، وظل ثماني سنوات حتى قتل صهره الأمير تنكز نائب الشام عام ٧٤٢هـ/ ١٣٤٣م، وغيرهم الكثير من الأمراء. ومن قبله كان الظاهر بيبرس البندقدارى قبل وفاته يوصى أبنه الملك السعيد بقوله "إنك صبى وهؤلاء الأكابر يرونك بعين الصبى فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحقق من ذلك عنه فأضرب عنقه في وقته ولا تعتقله ولا تستشر أحد في هذا وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك"(١٠١).

أما النشو فقد كان إنساناً عادياً وليس به شيئاً مميزاً عن غيره، وعندما تحسنت أحواله قليلاً ابتعد عن العامة وساعدته الأقدار وأستغل ذلك لصالحه كأنه ينتقم من الدنيا لكونه كان فقيراً يوماً ما ومع مرور الوقت سطع نجمه في الأفق وذاع صيته بين العامة والخاصة، فأصبح كاذباً، مخادعاً، محتالاً، عذب الكلام، لم يحترم القوانين أو الأعراف أو التقاليد، اتبع سياسة المكر والخديعة وتحين الفرص للإيقاع بالآخرين وكثيراً ما أختلق الفرص لتحقيق أغراضه، كما سخر الجميع للاستفادة منهم واستغلالهم وأحياناً ابتزازهم، وتجبر وتمرد وزاد في ظلمه وجبروته على الرعية، وهذا ما أكده ابن تغرى بردى فقال "كان النشو مستوفي وهو نصراني وكانت أخلاقه حسنة وفيه بشر وطلاقة وتسرع لقضاء حوائج الناس وكانوا يحبونه فلما تولى الخاص وكثر الطلب عليه وزاد السلطان في الإنعامات والعمائر وبالغ في أثمان المماليك وزوج بناته واحتاج إلى التكلفة المفرطة عن الحد ساءت أخلاق النشو وأنكر من يعرفه وفُتحت أبواب المصادرات لمن كان معه مال"(٩٨).

حواشي البحث

(١) ناظر الخاص السلطاني: هي وظيفة قديمة منذ عهد الفاطميين ولكن بلغت قيمتها وأهميتها في عهد الناصر محمد بن قلاوون عندما أبطل الوزارة وأقام شخصاً متحدثاً فيما هو خاص بمال السلطان ويؤخذ برأيه كأنه وزيراً وفي البداية سميت الخزانة السلطانية وكانت كبيرة لأنها مستودع أموال المملكة وتوجد في القلعة والمسئول عنها كان ناظر الخزانة ثم أصبح هناك موظف واحد يتولى الخزانة السلطانية والخاص السلطاني، أنظر المقريزي "تقي الدين أحمد بن على، ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م"، الخطط

المقريزية، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٦م، ج٣، ص٣٦٩، هو الذي ينظر في خاص أموال السلطان، أنظر القلقشندي "شهاب الدين أحمد بن على، ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م"، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، ١٩١٥م، ج٥، ص٤٦٥، وأيضاً هو الشخص المسئول عن جميع الخواص الشريفة وجهاتها وديوان الخاص السلطاني من أجل الدواوين وأعلاها ويُعرض عليه أرخص الأمتعة وأغلاها وله جهات عديدة منها متحصل ثغر الإسكندرية والبهار والسمك وجهات رسوم من أجناس متعددة والتراجمة وثغور أخرى، أنظر، ابن شاهين الظاهري "غرس الدين بن خليل، ت٨٧٢هـ/ ١٤٦٨م"، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بولس راويس، باريس، ١٨٩٤م، ص١٠٧- ١٠٨.

(٢) البطالون: هم الأجناد والأمراء العاطلون عن أعمال الدولة ووظائفهم وإقطعاتهم نتيجة غضب السلطان أو كبر السن أو الرغبة في الأعتكاف والإنزواء وقد يعاد إلى الخدمة والإقطاع وقت الحاجة، أنظر، إبراهيم على طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٤٧٣- ٤٧٤.

(٣) المستوفي: هو الشخص الذي يضبط الديوان وينبه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك وينقسم إلى مستوفي أصل ومستوفي مباشرة ولكل منهما اختصاصات، أنظر، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٦٦.

(٤) العسقلاني "شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن حجر، ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م"، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق عبد الوارث محمد على، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٢، ص ٢٦٠-٢٦١، الصفدي "صلاح الدين خليل بن أيبك، ت ٧٦٤ه/١٣٦٣م"، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق نبيل أبو عشمة وعلى أبو يزيد، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م، ج٣،ص ٢٠١-٢٠٤، ابن أيبك الدواداري "أبي بكر بن عبد الله بن أيبك، ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م"، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٩، تحقيق هانس روبرت، رويمر، القاهرة، ١٩٦٠م ، ص٣٦٤، الشجاعي "شمس الدين الشجاعي، ب.ت"، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، تحقيق بربارة شيفر، فيسبأون، ١٩٧٨م، ص٦٠.

(٥) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م، ج٢ ق٢، ص ٣٤٣-٣٤٤.، الأستادار: هو لقب يطلق على القائم على الشؤون الخاصة للسلطان أو الأمير وله مطلق التصرف في كل ما يحتاجه بيت السلطان من النفقات والكسوة، أنظر، محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠م، ص١٥.

(٦) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص ٣٤٧، ابن كثير "أبو الفداء الحافظ بن كثير، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م"، البداية والنهاية، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٨م، ج١٤، ص ١٧١، مؤلف مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، تحقيق زترستين، ليدن، ١٩١٩م، ص ١٨٥.

(٧) المقريزي، السلوك، ج٢ ق٢، ص ٣٤٧- ٣٤٨.

(٨) المقريزي، السلوك، ج٢ ق٢، ص ٣٤٨- ٣٤٩.

(٩) اليوسفي "موسى بن محمد بن يحيى، ت ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م"، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، بيروت، ١٩٨٦، ص ١١٩- ١٢٠.

(١٠) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص ٣٨٤، اليوسفي، نزهة الناظر، ص ٢٦١.

(١١) ابن أيبك الدوداري، كنز الدرر، ج٩، ص ٣٦٤.

(١٢) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(١٣) اليوسفي، نزهة الناظر، ص١٢٩.

(١٤) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٣٦١، جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن تغرى بردى، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٧، تحقيق، محمد محمد أمين، الهيئة العامة، ١٩٨٨م، ٨٩-٩٠.

(١٥) السلوك، ج ٢ ق٢، ص٣٧٠- اليوسفي، نزهة الناظر، ص١٨٠.

(١٦) اليوسفي، نزهة الناظر ص١٨٠-١٨١.

(١٧) المقريزي، السلوك، ج٢ ق٢، ص٣٧٠

(١٨) اليوسفي، المصدر السابق، ص١٨٢.

(١٩) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٣٨١، اليوسفي، المصدر السابق، ص ٢٤٢-٢٤٣-٢٤٤.

(٢٠) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٣٨١، الحياصة: يقصد بها الحزام، أنظر، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط٤، بيروت، ٢٠٠٤م، ص٢٠٧، وكانت جزء من ثياب التشريف وكانت تصنع من الفضة والذهب ثم رصعت بالجواهر والأحجار الكريمة وقدرت قيمتها بـ٤٠٠ درهم ولها سوق الحوائصيين، وفي عصر الناصر كان الأمراء الكبار يرتدون حوايص تقدر بـ٣٠٠ دينار والأقل ما بين ١٥٠-١٧٠ دينار. أنظر، المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٦١، ماير، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، الهيئة العامة، ١٩٧٢، ص٤٨.

(٢١) اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٤٤-٢٤٥.

(٢٢) اليوسفي، المصدر السابق، ص٢٤٦-٢٤٧.

(٢٣) اليوسفي، المصدر السابق، ص٢٥٢.

(٢٤) المقريزي، السلوك، ج٢ ق٢، ص٣٨٣، اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٥٢.

(٢٥) المقريزي، المصدر السابق، ص٣٨٤.

(٢٦) اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٥٧.

(٢٧) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص ٣٨٤-٣٨٥، اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٦٢.

(٢٨) اليوسفي، المصدر السابق، ص١٩٤-١٩٥.

(٢٩) المقريزي، السلوك ج٢، ص٣٨٤.

(٣٠) اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٥٩-٢٦٠.

(٣١) اليوسفي، المصدر السابق، ص٢٨٨-٢٨٩، المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٣٩٢.

(٣٢) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٣٦٠، اليوسفي، نزهة الناظر، ص١٢٧.

(٣٣) المقريزي، نفس المصدر، ص٤١٩.

(٣٤) نفس المصدر، ص٤٣٥.

(٣٥) نفس المصدر، ص٤٠٠-٤٠٢.

(٣٦) المقريزي، المصدر السابق، ص٣٨٧، اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٧١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١١٤.

(٣٧) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٤٠٢.

(٣٨) نفس المصدر، ص٣٩٠-٣٩١، اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٨٤-٢٨٥.

(٣٩) اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٨٤-٢٨٥.

(٤٠) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٣٧١، ٣٧٩، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١١٢.

(٤١) المواريث الحشرية، فهي الأموال التي ليس لها وريث فتوضع في مؤسسة يتولاها قاضي القضاة وسمى ناظر الدواوين الحشرية، أنظر، القلشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٣.

(٤٢) اليوسفي، المصدر السابق، ص٢٧٦.

(٤٣) نفس المصدر، ص٢٧٧-٢٧٩.

(٤٤) نفس المصدر، ص٢٩٢-٢٩٣، المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٣٩٣.

(٤٥) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٤١٣.

(٤٦) نفس المصدر، ص٤٣٢-٤٣٦.

(٤٧) نفس المصدر، ص٤١٤، اليوسفي، نزهة الناظر، ص٣٥٧- ٣٥٨.

(٤٨) المقريزي، المصدر السابق، ص٣٦٠-٣٦١، اليوسفي، المصدر السابق، ص١٢٧، سياسة طرح البضائع: تقوم على أساس أن تفرض الدولة ما لديها من سلع على التجار بالسعر الذي تراه وبالكمية التي تحددها بغض النظر عن حاجة الأسواق ولم يكن للتاجر الحق في الرفض أو المساومة علي الأسعار وتقوم الدولة بذلك إما لطمع وجشع السلطان فيحتكر سلع هامة ومؤثرة ويطرحها على التجار أو أن يطرح سلع زائدة عن حاجته كما أن معظم تلك السلع كانت هدايا أو غنائم حرب وفي النهاية فإن السلطان هو المستفيد الوحيد، وفي نفس القوت كان يجبر التجار على تسديد أثمانها في الحال، أنظر، قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٣، ص٥٢.

(٤٩) اليوسفي، نزهة الناظر، ص١٢٨.

(٥٠) الفرجية: هي رداء فوق الملابس ولكنها طويلة الأكمام ومفتوحي بالأزار من أعلى لأسفل وتسمى بالثوب الفوقاني وخاصة بالعلماء ولكنها بدون فتحات لمن هم أقل منهم، أنظر، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيي بن فضل الله العمرى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج٢- تحقيق، درولوفسكي ، بيروت، ١٩٨٦م، ص١١٢، ماير، الملابس، ص٩١-٩٢.

(٥١) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٤٠٨-٤٠٩، اليوسفي، المصدر السابق، ص٣٤٣-٣٤٤، الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص١٣-١٤.

(٥٢) الشجاعي، المصدر السابق، ص١٤.

(٥٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص٤٧٣. ويذكر المقريزي أنهم كانوا آخر من عمل بزراعة قصب السكر وعصره في الصعيد وعندما أفرج عنهم وجدوا لهم مخزوناً لم يهتد إليه النشو قدر بحوالي ١٠ آلاف قنطار عسل، المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص٣٢٩.

(٥٤) اليوسفي، نزهة الناظر، ص١٨٦-١٨٧.

(٥٥) دنانير هرجة: تستعمل خاصة في الحلي كالأساور والعقود وغيرها، بأن يصاغ في أطرافها حلقات صغيرة أو يجعل في جوانبها ثقوب، ومفردها هرج، أنظر، سعيد عاشور، العصر المماليكى، دار النهضة، ١٩٧٦م، ص٤٨٣.

(٥٦) المقريزي، المصدر السابق، ص٣٩٣، ٤٤٤، اليوسفي، المصدر السابق، ص٢٩٢.

(٥٧) دواليب: مفردها دولاب وهي الآلات العجلية تعتمد على الحيوانات وتستعمل في الزراعة والصناعة عموما سواء السكر أو النسيج وغيرها، أنظر، سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٤٣٩.

(٥٨) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٤٠٨-٤٠٩، اليوسفي، نزهة الناظر، ص٣٤٣، ٣٤٦.

(٥٩) المقريزي، المصدر السابق، ص٤١٣، اليوسفي، المصدر السابق، ص٣٥٠-٣٥٣، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١١٦.

(٦٠) المقريزي، المصدر السابق، ص٤١٤.

(٦١) المقريزي، المصدر السابق، ص٤٢٠، اليوسفي، المصدر السابق، ص٣٧٢.

(٦٢) المقريزي، المصدر السابق، ٤٣٥، ٤٣٩.

(٦٣) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٤٣٧، ٤٤٤.

(٦٤) اليوسفي، نزهة الناظر، ص١٨٩، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص١٦٦

(٦٥) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٣٨١، ٣٨٥، اليوسفي نزهة الناظر، ص١٢٠، ٢٤٢-٢٤٣.

(٦٦) المقريزي، المصدر السابق، ص٣٦٠، اليوسفي، المصدر السابق، ص١٢٦.

(٦٧) اليوسفي، المصدر السابق، ص١٧٧.

(٦٨) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٣٦١، ٣٦٩-٣٧٠، اليوسفي نزهة الناظر، ص١٣١، ١٧٩.

(٦٩) المقريزي، المصدر السابق، ص٣٧٢، اليوسفي، المصدر السابق، ص١٩٦.

(٧٠) المقريزي، المصدر السابق، ص٣٧٢.

(٧١) المقريزي، المصدر السابق، ص٣٧٢، اليوسفي، المصدر السابق، ص١٩٦

(٧٢) المقريزي، المصدر السابق، ص٣٧٤.

(٧٣) المقريزي، المصدر السابق، ص٣٨٦، اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٦٩، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١١٣.

(٧٤) المقريزي، المصدر السابق، ص٤٠٠، اليوسفي، المصدر السابق، ص٣٠٨-٣١١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ص١٥.

(٧٥) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٤٢٢، اليوسفي، نزهة الناظر، ص٣٧٥، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ص١١٧-١١٨، الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص٥، الصفدي، أعيان العصر ج٣، ص٢٠٣-٢٠٤

(٧٦) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١١٨.

(٧٧) المقريزي، المصدر السابق، ص٤٤٦.

(٧٨) الشجاعي، المصدر السابق، ص٥٨.

(٧٩) المقريزي، المصدر السابق، ص٤٧٣-٤٧٥-٤٧٧، ابن تغرى برى، النجوم الزاهرة، ص١٣١، الشجاعي، المصدر السابق، ص٥٩.

(٨٠) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٤٧٦.

(٨١) المقريزي، المصدر السابق، ص٤٧٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ص١٣٢

(٨٢) ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ص١٣٣، الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص٦٠-٦٣

(٨٣) أبو الفدا "الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل" المختصر في أخبار البشر ج٤، تحقيق محمد زينهم عزب، دار المعارف، ص١٥٢.

(٨٤) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ص١٣٥-١٣٦

(٨٥) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٤٧٩.

(٨٦) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٤٨١، ابن تغرى برى، المصدر السابق، ص١٣٩.

(٨٧) البلخش: من المعادن النفيسة، أحمر اللون مع تفاوت في الحمرة، حسب أنواعه، فمنه المعقربي شديد الحمرة، والعطشي صافي الحمرة، والأنارى رمادى اللون، والنيازكي أحمر ناصل، ومنه الأصفر والأخضر الزبرجدى وأخضر داكن والبنى والأسود.

(٨٨) المقريزي، السلوك ج٢ ق٢، ص٤٧٨-٤٨٣، الصفدي، أعيان لعصر، ج٣، ص٢٠٢، الحافظ الذهبي، ذيول العبر، ج٤، ص١١٨، النجوم، ص١٣٨-١٣٩.

(٨٩) المقريـزي، المصـدر السـابق، ص٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨٣، أبـو الفـدا، المختصـر، ج٤، ص١٥١-١٥٢

(٩٠) العسـقلاني، الـدرر الكامنـة، ج٢، ص٦٤، ابـن تغـرى بـردى، المنهـل الصـافي، ج٥، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة العامة، ١٩٨٨م، ص٣٤٨-٣٤٩.

(٩١) المقريزي، المصدر السابق، ص٤٨٧.

(٩٢) المقريزي، المصدر السابق، ص٤٨٦، ابن تغرى بردى، النجوم، ص١٣٩.

(٩٣) السيد الباز العريني، الاقطاع الحربي بمصر زمن المماليك، نهضة مصر ١٩٥٦م، ص١٨

(٩٤) المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص١٤٤.

(٩٥) شرف الـدين يحيي بـن المقر بـن الجيعـان، التحفـة السنية بأسماء البلاد المصرية، بولاق، ١٨٩٨م، ص٧، ١٣٧-١٣٨.

(٩٦) المقريـزي، السـلوك، ج٢ ق٢، ص، ٥٤، ٨٠-١٠٠، ١١٦-١٢٤، دارى، كنـز الدرر، ج٩، ص٢١٠-٢١٢، ٣٧٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٧، ابـن اياس، بـدائع الزهـور، ج١ ق١، ص٤٣٦، العسـقلاني، الـدرر الكامنـة، ج٤، ص٨٦، الحسـن بـن عمر بـن حبيب، تذكرة النبيه بأخبار المنصور وبنيه، ج٢، تحقيق محمـد محمـد أمـين، سـعيد عاشـور، الهيئـة العامـة، ١٩٨٢م، ص٣٢١، وللمزيـد مـن التفاصيل عـن المصـادرات وأنواعهـا وأسبابها وحجـم الأمـوال المصـادرة، أنظر، البيـومي إسماعيل الشربيني، مصادرة الأملاك، الهيئة العامة، ج١، ١٩٩٧م.

(٩٧) ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص١٧-١٨، ٣٥، ٣٧، ٥٠، ١٠٨، ١١٢، ١١٩، ١٦٦- ١٨٠، المقريـزي، الخطـط، ج٣، ص٣٤٠، ٣٤٤، السـلوك، ج٢، ص١١٩-١٢٠، ١٢٩، ٢٤٩، ٢٨٦-٢٨٨، الـدوادرى، كنـز الـدرر ج٩، ص٢٥٠، ٣٤٢، الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص١١٣-١١٤،

(٩٨) ابــن تغـرى، النجـوم ج٩، ص١٧٣-١٧٥، الشـجاعي، تاريـخ الملـك الناصـر، ص١١٢-١١٥، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٢، ص٣٢٥.

(٩٩) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص٧١، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص٩٢، صلاح الدين بن أيبك الصفدى، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق على أبو زيد، نبيل أو عشمة، وأخرون، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م، ج٥، ص٩٦

(١٠٠) المقريزي، السلوك، ج٢ ق١، أحداث عام ٧١٠هـ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٧.

(١٠١) عز الدين محمد بن على بن إبراهيم بن شداد، تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، فيسبادن، ١٩٨٣، ص٢٢٤، حاشية (٣)، جمال الدين محمد بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٥، تحقيق حسنين ربيع، سعيد عاشور، دار الكتب، ١٩٧٢م، ص٤٤٠.